الصباح الإسلامية
09
إعداد : ياسر السيد
العدد 2411 - السنة الثامنة
الخميس غرة جمادى الأخرة 1437 - الموافق 10 مارس 2016
Thursday 10 March 2016 - No.2411 - 8th Year

على المسلم أن يأخذ بالأسباب التي تجعله يستحق لقب خلافة الله في الأرض

ترشيد الاستهلاك من منظور إسلامي

إذا كانت الدار الأخرة هي المال فان الحياة الدنيا في منظار الإسلام ليست ضرة لها بل هي بلاغ إليها لأجل ذلك وفي سبيل نفي التناقض بين ثنائية : المادة والروح والدنيا والأخرة تعددت الآيات القرانية والأحاديث النبوية الداعية إلى العمل الشريف والسعي الجاد في طلب الرزق الحلال والحرص على ان تكون يد المسلم هي العليا حيث يقول جل من قائل: (وابتغ ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن الله إليك).

فليست هذه الحياة الدنيا في منظار الإسلام وتوجيهاته ومبادئه جيفة قذرة يحرم على المسلم التمتع بطيباتها وخيراتها إن هو اراد الإحراز على مرضاة ربه بل العكس من ذلك فان المسلم مدعو إلى التمتع بطيباتها والسعي الجاد إلى اكتساب حلالها بالطرق المشروعة (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة).

ولعل من أسباب خلود الإسلام ومما يرشحه إلى أن يظل يلعب دورا في حياة المسلمين في كل العصور هو مجاراته للفطرة والطبيعة البشرية السليمة وسعيه الجاد إلى سلوك الوسطية والاعتدال في كل ما يأمر به المسلمين وما ينهاهم عنه. ونبذه لكل تطرف سواء كان ذلك في اتجاه إعلاء شان المادة والتكالب عليها والإسراف فيها أو الزهد في المادة ومحاولة التحرر منها في اتجاه التنسك والترهب فلا رهبانية في الإسلام ولا تكليف للنفس بما لا طاقة لها به. والناظر في مبادئ الإسلام وتعاليمه يجدها تسعى جادة إلى إرساء وتجسيم الوسطية في كل مناحي الحياة وجوانب السلوك البشري سواء في علاقة العبد بربه أو علاقته بالناس أو علاقته بالأشياء (فلا إفراط ولا تفريط) و(لا ضرر ولا ضرار).

ولقد سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يجسم بقوله وفعله هذه التعادلية الشاملة.

فإذا كان المسلم مدعوا بصريح الآيات والأحاديث إلى العمل من اجل عمارة الكون الذي استخلفه الله عليه.

وإذا كان مطلوبا منه أن يأخذ بالأسباب وان يحترم القوانين التي بثها الله في هذا العالم -وهو في مسعاه مأجور مثاب- فان المسلم مدعو أيضا إلى التصرف برشد ومسؤولية في ما سخّر له ووهبه الله له من خيرات أو في ما اكتسب وحصل عليه نتيجة لجده وكده وانتشاره في الأرض وابتغائه من فضل الله.

وإذا كان الإسلام من منطلق مراعاته للفطرة التي فطر الله الناس عليها لا يعترض ولا يواجه ما جعله الله في النفس البشرية من غرائز وتطلعات فانه لا يطلق العنان لأهواء الإنسان الهوجاء تفعل ما تشاء بالإنسان أو بما يحيط به.

فحرية الإنسان في سائر تصرفاته لا يمكن ان تنقلب إلى تصرفات هوجاء بل هي حرية مسؤولة تصلح ولا تفسد وتنفع ولا تضر وهي هذا الإطار اعتبر الإسلام من لا يحسن التصرف في ما بين يديه من مال سواء كان مصدر هذا المال الهبة أو الإرث أو الكسب المشروع اعتبره سفيها دعا إلى الحجر عليه حيث قال جل من قائل: (ولا تؤتوا السفهاء اموالكم).

والإنسان المسلم يعتقد أن ما بين يديه من مال وما أسبغ عليه الله سبحانه وتعالى من نعم ظاهرة وخفية اعتبر كل ذلك أمانات بين يديه مطلوب منه ان يحسن التصرف فيها ثم انه سيسال عنها يوم القيامة إن هو أسرف أو بذر. وفي سياق تعداد صفات عباد الرحمان التي وردت في سورة الفرقان حدد المولى سبحانه وتعالى للمسلم المنهج الوسط في الإنفاق حيث قال جل من قائل: (والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانبين ذلك قواما) الفرقان.

× والإسراف في اللغة (هو مجاوزة القصد يقال اسرف في ماله اي انفق من غير اعتدال ووضع المال في غير موضعه).

× الإسراف في الاصطلاح الشرعي (مجاوزة الحد وهو في النفقة تجاوز الحد) ومن الألفاظ ذات الصلة القريبة بالإسراف كلمة التبذير الذي هو عدم إحسان التصرف في المال وصرفه فيما لا ينبغي وكلمة السفه التي اعتبرت كالتبذير والإسراف وهما القران للسفة وقد اعتبر بعض الفقهاء ان الإسراف يكون في الخير كما يكون في الشر من ذلك ان من تصدق بماله كله يعتبر مسرفا. إذ المسلم غير مطلوب منه ذلك فهو مامور بان يؤتي الحق الذي عليه في ماله حيث قال جل من قائل: (واتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا).

وقد نزلت هذه الآية في صحابي يدعى ثابت بن قيس انفق خمسمائة نخلة ولم يترك لأهله شيئا. وقيل إنها نزلت في معاذ بن جبل الذي فعل مثل فعل ثابت بن قيس.

والإسلام يسعى إلى جعل المسلم يتجنب الإسراف والتبذير في كل ما يأتيه من تصرفات من ذلك مثلا في مجال العبادة كالوضوء والغسل فقد اتفق الفقهاء على ان الإسراف في استعمال الماء مكروه واستدلوا على ذلك بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع -مسلم-

وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف؟ فقال سعد: أفي الوضوء إسراف؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم ولو كنت على نهر جار. أخرجه ابن ماجة.

وقد أمر الإسلام المسلم بالاقتصاد ومراعاة الاعتدال حتى في العبادة من صلاة وصيام عملا ينفي الحرج وتوخي التيسير وعدم التعسير من ذلك إباحة الإفطار عند السفر وإباحته للحامل والمرضع والمريض عند خشية حصول الضرر وقد ورد في هذه المعاني احاديث عدة منها قوله عليه الصلاة والسلام: (هلك المتنطعون) (ومن رغب عن سنتي فليس مني) (ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه) والدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله والوعد عليه بجزيل الثواب وعظيم الأجر فيدها الإسلام يتوخى الوسطية حيث قال جل من قائل: (والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) سور الفرقان آية 67.

وقوله سبحانه وتعالى: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) سورة الإسراء آية 29

وقد قال المفسرون في معنى هذه الآية: ولا تخرج جميع ما في يدك مع حاجتك وحاجة عيالك إليه فتقعد منقطعا عن النفقة والتصرف كما يكون البعير الحسير وهو الذي ذهبت قوته. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يأتي احدكم بما يملك فيقول هذه صدقة ثم يقعد يستكف الناس!! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) أخرجه ابو داود.

واعتبر الإسلام الإنفاق على العيال واجبا قال عليه الصلاة والسلام (كفى بالمرء إثما ان يضيع من يمونه) أخرجه مسلم وأبو داود-كما لا يجوز للمسلم أن يوصي باكثر من ثلث ماله لما في ذلك من إلحاق للضرر بالورثة فقد قال سعد بن ابي وقاص (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع وانا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة أفاتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. بالشطر؟ فقال لا. ثم قال: الثلث والثلث كبير او كثير انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس)... أخرجه البخاري ومسلم-

وكذلك نهى الإسلام عن الإسراف في سفك دماء الأعداء في القتال حيث قال جل من قائل: (ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) واجاز الإسلام للمسلمين الصلح وعقد الأمان (وان جنحوا للسلم فاجنح لها).

واعتبر الإسلام الأكل والشرب بالقدر الذي يدفع الهلاك فرضا واعتبر الشبع مباحا أما ما زاد على الشبع فهو مكروه او محظور قال تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا). وارشد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المقدار الذي يأمن به الإنسان الضرر ولا يكون مسرفا حيث قال علي الصلاة والسلام (ما ملأ ادمي وعاء شرا من بطن بحسب ابن آدم اكلات- او لقيمات يقمن صلبه فان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) اخرجه احمد- والمعدة كما هو معلوم بيت الداء والحمية اي التقليل من الأكل هو راس الدواء وقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم المسلم إلى متى يأكل فيه حيث قال» (نحن قوم لا ناكل حتى نجوع وإذا أكلنا فلا نشبع) واعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم الاستجابة لكل مطالب النفس ورغباتها سرفا حيث قال عليه الصلاة والسلام: (إن من السرف ان تاكل كل ما اشتهيت).

وتوعد الرسول صلى الله عليه وسلم الذين يكثرون من الشبع في الدنيا بطول الجوع يوم القيامة حيث قال عليه الصلاة والسلام: (ان اكثر الناس شبعا في الدنيا اطولهم جوعا يوم القيامة).

وإذا كان المسلم مدعوا إلى اخذ زينته ومامورا بان يرى اثر نعمة الله عليه فان افضل لباس المسلم ما ستره واجاز الشرع التوسع في اللباس ولكن في اعتدال وفي غير ما إسراف وخيلاء حيث قال عليه الصلاة والسلام: (البسوا ما لم يخالطه إسراف ومخيلة) -ابن ماجة-.. وحرصا من الإسلام على تصحيح المفاهيم بحيث لا يفهم من مقاومته للإسراف والتبذير انه يطلب من المسلم ان يكون بالي الهندام رث اللباس اشعث اغبر فقد روى ابن مسعود رضي الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله (لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر) قال رجل: إن الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا. قال: (إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس) مسلم.

كما نهى الإسلام عن الإسراف والمغالات في المهور واعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم اعظم النساء بركة أيسرهن (مؤنة) مهرا. كما دعا الإسلام إلى القصد وعدم المغالاة في التكفين والتجهيز حيث قال عليه الصلاة والسلام: (لا تغالوا في الكفن فانه يسلب سلبا سريعا) وأمر أبو بكر الصديق لما حضرته الوفاة بان لا يكفن في ثوب جديد لأن الحي أولى به وأحوج إليه من الميت.

ولئن أباح الإسلام للمضطر الانتفاع بالمحرم ولو كان ميتة أو دما أو لحم خنزير أو مال الغير واستدل الفقهاء على ذلك بالآية الكريمة (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) فان الأكل والشرب من المحرم حال الاضطرار محدود لا يجوز تجاوزه والإسراف فيه وكذلك نهى الإسلام عن الإسراف في العقوبة والإسراف في القصاص والإسراف في الحدود والإسراف في التعزير مما لا يتسع المجال لإقامة الحجة والدليل عليه في هذا الحيز الضيق.

ولكن ما نريد الانتهاء إليه والتأكيد عليه هو هذا الثراء وذلك التنوع والشمول الذي يزخر بهما ديننا الإسلامي الحنيف في أصليه الثابتين كتاب الله العزيز وسنة نبيه الأسعد الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فقد توفر لامتنا العربية الإسلامية من الكنوز والجواهر ما لم يتوفر لغيرها من الأمم والشعوب فقد خصها المولى سبحانه وتعالى بكتاب لا تنقضي عجائبه وينبي دعاها إلى ما يحييها ويشرع جعل من دفع المفسدة وجلب المصلحة اساسا واصلا لكل أوامره ونواهيه ولقد حجبت هذه الكنوز بفعل عوامل عدة عن أن يكون لها تاثير يذكر في حياة المسلمين الخاصة والعامة.

دعوة الرسول إلى بر الوالدين

إن مكانة الوالدين عند الله ورسوله لمكانة عظيمة ، الم يقل عز وجل « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » . فجاءت أحاديث الرسول لتعزز قول الله عز وجل حول مكانة الوالدين وضرورة البر بهم : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » . قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » . متفق عليه . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أحق الناس بحسن صحابتي قال : « أمك » . قال ثم من قال : « ثم أمك » . قال ثم من قال : « ثم أبوك » . متفق عليه . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أقبل رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغي الأجر من الله. قال : « فهل من والديك أحد حي ؟» . قال نعم بل كلاهما. قال : « فتبتغي الأجر من الله ؟ » . قال نعم. قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما » . أخرجه مسلم . عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال : « أحي والداك ؟ » . قال : نعم . قال : « ففيهما فجاهد » . أخرجه مسلم . عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوي يبكيان ، فقال : « ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما » . أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني . عن معاوية بن جاهمة السلمي : « أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك ، فقال : هل لك من أم ؟ قال : نعم ، قال : فالزمها ، فإن الجنة تحت رجليها » . أخرجه النسائي وابن ماجه وصححه الألباني . عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : كان جريج يتعبد في صومعة فجاءت أمه. قال حميد فوصف لنا أبو رافع صفة أبي هريرة لصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمه حين دعته كيف جعلت كفها فوق حاجبها ثم رفعت رأسها إليه تدعوه ، فقالت : يا جريج أنا أمك كلمني. فصادفته يصلي فقال : اللهم أمي وصلاتي. فاختار صلاته فرجعت ثم عادت في الثانية ، فقالت : يا جريج أنا أمك فكلمني. قال اللهم أمي وصلاتي. فاختار صلاته ، فقالت : اللهم إن هذا جريج وهو ابني وإني كلمته فأبى أن يكلمني اللهم فلا تمته حتى تريه المومسات. قال : ولو دعت عليه أن يفتن لفتن. قال : وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره قال فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعي فحملت فولدت غلاما ، فقيل لها : ما هذا ؟ قالت : من صاحب هذا الدير. قال : فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم فنادوه فصادفوه يصلي ، فلم يكلمهم ، قال : فأخذوا يهدمون ديره ، فلما رأى ذلك نزل إليهم فقالوا له : سل هذه قال : فتبسم ثم مسح رأس الصبي فقال : من أبوك ؟ قال : أبي راعي الضأن. فلما سمعوا ذلك منه ، قالوا : نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة. قال : لا ولكن أعيدوه ترابا كما كان ، ثم علاه » . أخرجه مسلم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة الوالد على ولده ، ودعوة المظلوم ، ودعوة المسافر » . أخرجه البخاري في الأدب المفرد وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني . عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه ، إذا مل ركوب الراحلة وعمامة يشد بها رأسه ، فبينا هو يوما على ذلك الحمار ، إذ مر به أعرابي ، فقال : ألست ابن فلان بن فلان ؟ قال : بلى . فأعطاه الحمار وقال : اركب هذا ، والعمامة ، قال : اشدد بها رأسك ، فقال له بعض أصحابه : غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حمارا كنت تتروح عليه ، وعمامة كنت تشد بها رأسك! فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : « إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه ، بعد أن يولي » . وإن أباه كان صديقا لعمر . أخرجه مسلم .

تحدث عنها القرآن في مواضع عدة ودعا إليها

الإسلام دين .. الإيجابية

تحدث القرآن الكريم عن فضيلة الإيجابية في مواضع كثيرة بالفاظ مثل المسارعة والمسابقة والمنافسة ، مثل قوله تعالى : «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » [الأنبياء:90] ،وقوله تبارك وتعالى : «وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » آل عمران:114]، وقوله جل وعلا : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» [آل عمران : 133]، وقوله : « سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» [الحديد 22]، وقوله : « وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » [المطففين :26]، إضافة إلى قصص الإيجابيين امثال مؤمن آل فرعون - في سورة غافر - الذي وقف ينصر جماعة موسى - عليه السلام - أمام طغيان النظام الفرعوني المستبد، ومثال الرجل الصالح - في سور يس - الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لنصرة انبياء الله المستضعفين، ومثال تلك الجماعة التي انكرت على اصحاب السبت فسادهم - في سورة الأعراف - وكان شعار هذه الجماعة المؤمنة هو الإعذار إلى الله ، حيث لما قال المسيئون « لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا » .. قال الإيجابيون : « مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » [الأعراف : 164] .

ومثال قصة هدهد سليمان - في سورة النمل - ذلك الهدهد الذي طار إلى مملكة سبأ في جنوب الجزيرة العربية تاركا سليمان في الشام، بغير تكليف أو تنفيذ لأمر صادر، ليأتي بخبر عظيم إلى القيادة أدى إلى دخول أمة بأكملها في دين الله ..

الإيجابية سنة مهجورة !

وقد بينت السنة النبوية أهمية هذه القيمة الإسلامية العظيمة، فيقول- صلى الله عليه وسلم: « إن قامت الساعة و في يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ان لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها » [صحيح، أحمد، عن أنس].. فبين أن يكون المسلم إيجابيًا حتى قيام الساعة .. وحتى آخر رمق في حياته .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ ... » الحديث [مسلم، عن أبي سعيد] .. فبين أن يكون المسلم إيجابيًا على الفور، حيث القاء هنا في « فليغيره» للسرعة، حيث الإسراع في تغيير المنكر واجب كما أن تغيير المنكر نفسه واجب آخر .

ويقول أيضا : « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ والوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا؟ فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا، وهَلَكُوا جَمِيعًا، وإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا » [البخاري، النعمان بن بشير] .فهذا الحديث الكريم رسالة واضحة إلى هؤلاء الذين اتخذوا من كلمة « وانا مالي » شعارًا لهم، حيث ناموا عن الحق، وتركوا الباطل يكبر حتى أوشك على إهلاك الجميع .

كيف تكون إيجابيًا :

إذا أردت أن تتحلى بهذا الخلق الإسلامي فعليك بأربع:

الأولى : الإستعاذة بالله تعالى من الكسل والجبن صباحًا ومساءً فتقول :

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ والحُزْنِ والعَجْزِ والكَسَلِ والبُخْلِ والجُبْنِ وضَلَعِ الدَّيْنِ وغَلَبَةِ الرِّجَالِ»[البخاري، انس]، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا الدعاء وهو في طريقه لفتح خيبر .

الثانية : مقاومة الكسل والجبن عمليًا بالتحرك السريع في إنجاز الفرائض والواجبات والمستحبات .